

الفهرست لابن جالب الجعفي

وقد أضيفت الى هذا الكتاب تكملة
قيمة لم تنشر قبل اليوم وكانت بين
الذخائر المصونة في المكتبة التيمورية

مع مقدمة شائقة عن حياة ابن النديم وفضل الفهرست
بقلم أحمد أسانزة الجامعة المصرية



الناشر
دار المعرفة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر برحمتك النفوس أطال الله بقاءك تشراب إلى التناجح دون
المقدمات وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات فلذلك اقتصرنا
على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إذ كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه
إن شاء الله فنقول وبالله نستعين وإياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه وعباده
المخلصين في طاعته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة
العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم
وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأما كن بلداتهم ومناقبهم
ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين
وثلاثمائة للهجرة

مقدمة

في

﴿ التعريف بابن النديم وكتابه الفهرست ﴾

لم يكن التاريخ حاكما عادلا، يمنح للناس شهرة بنسبة أعمالهم، ويكافئهم على قدر استحقاقهم، فهذا رجل جمع صحائف من أقوال غيره ولفقها تلفيقا فمنحه التاريخ ألقابا ضخمة وخلد له ذكرا مطولا في بطون الصحائف، وآخر كان نابغة حقا في تفكيره وعمله ثم أهمله التاريخ فقلَّ أن تجد له ذكرا، أو تعرف له حياة مفصلة

واعلن أصدق ما ينطبق عليه هذا القول «ابن النديم» فكتابه «الفهرست» يدل على أنه كان رجلا فذا من نواحي مختلفة كما سنبينه، ثم تبحث في كتب التراجم عن حياته وعمله فلا تظفر من ذلك بشيء له قيمة — فابن خلكان لم يترجم له مع أنه ترجم لمن لا يعد شيئا إذا قيس به من تاجر، ومالي، وفقهه، ومتصوف ومشعور، وسفالك دماء. وصاحب «فوات الوفيات» لم يذكره فيما استدركه على وفيات الأعيان، وأهملته كذلك أكثر كتب التراجم، ومن ذكره منهم ترجم له ترجمة ناقصة لا تنفي بالغرض كما فعل ياقوت في كتابه «معجم الأنبياء» فقد قال «محمد بن اسحق النديم، كنيته أبو الفرج، وكنية أبيه أبو يعقوب. مصنف كتاب الفهرست الذي جود فيه واستوعب استيعابا يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه بجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقا يبيع الكتب. وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه صنف في سنة ٣٧٧ هـ من التصانيف: فهرست الكتب. كتاب التشبيهات. وكان شيعيا معتزليا،

هذا كل ما ذكره ياقوت ، ولا نعرف من هذه الترجمة متى كان مولده ولا في أي قطر كان ، وكيف كانت حياته ، وما نوع العلوم التي تعلمها ، وعمّن أخذ ، ومتى توفي — وكل الذي نعرفه بعد هذا أن ابن النجار في كتابه « ذيل تاريخ بغداد » قال أن ابن النديم « صنف كتاب الفهرست في شعبان سنة ٣٧٧ ومات يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ »

وقد يفهم من قول ابن النجار أنه ألف الكتاب في شعبان سنة ٣٧٧ . والذي يظهر أنه إنما يريد أنه أنهاء في هذا الشهر من تلك السنة — وكل عمدة الذين يترجمون له بعد هذين النصين إنما هو على كتاب الفهرست نفسه وما يستنتج منه — والمتبع للكتاب يرى أن المؤلف نص في مواضع كثيرة على أنه ألفه سنة ٣٧٧ فيقول مثلاً في آخر المقالة الأولى « هذا آخر ما صنفناه من المقالة الأولى من كتاب الفهرست إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة ٣٧٧ ولكننا نجد أنه نص في مواضع مختلفة على أشياء حدثت بعد هذا التاريخ فيقول في ترجمة المرزباني أنه توفي سنة ٣٧٨ . ويقول في وفاة ابن جني أنه مات سنة ٣٩٢ ووفاة ابن نباتة التميمي أنه مات بعد الاربعائة — وهذا يخالف مخالفة تامة ما ذكره المؤلف من أنه ألفه سنة ٣٧٧ وما نقله ابن النجار من أنه مات سنة ٣٨٥ فالذي يظهر أن المؤلف كتب نسخته سنة ٣٧٧ وكان يترك فيها بياضاً يملؤه بما يجده بعد ذلك أو يضع على النسخة تعليقات في أزمنة مختلفة — يدل على ذلك قوله في ترجمة المرزباني « أن مولده في جادى الآخرة سنة ٢٩٧ ويحيا إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٧٧ . . . وتوفي سنة ٣٧٨ » فظاهر أن الزمن الذي كتب فيه جملة « ويحيا إلى وقتنا هذا » غير الزمن الذي كتب فيه « وتوفي سنة ٣٧٨ » وظل يعمل في نسخته هذه إلى أن مات . ثم كان العلماء بعده يتعاقبون عليه بالزيادات التي وجدت بعد هذا التاريخ . وقد طلب المؤلف نفسه ذلك ممن يأتي بعده من العلماء فيقول « وزعم بعض اليزيدية أن له (الحسن بن علي)

نحواً من مائة كتاب ، ولم نرها ، فان رأى ناظر في كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها
أما إسمه فيكاد يجمع من ينقل عنه ومن يترجم له على أن اسمه محمد بن
اسحق وبعضهم يقول محمد بن النديم . وتارة يقولون قال ابن النديم . ويختلفون
في كنيته فبعضهم يكنيه أبا الفتح . وبعضهم يكنيه أبا الفرج — ومولده على ما يظهر
في بغداد فابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الاطباء يقول «قال محمد بن اسحق النديم
البغدادى في كتاب الفهرست» ومن العسير تحديد مولده وكل الذى نعرفه
أنه يقول في ترجمة الصفوانى لقيته سنة ٣٤٦ فهو اذن كان يعيش في هذه
السنة وكان على الاقل شابا يستطيع أن يصف مايلقى ويدون سنة لقياه بل
أكثر من هذا يقول في ترجمة البردعى «رأيت سنة ٣٤٠ وكان بى أنسا»

وقد ذكروا أنه كان ورّاقاً ويصفه بعض الكتب أيضاً بأنه كان كاتباً وكلاً
الحرفتين أعانه على تأليف هذا الكتاب ، فالوراقة كانت حرفة احترفها كثير من
العلماء ووظيفتها انتساخ الكتب وتصحيحها وتجليدها والتجارة فيها ، فهذه
المهمة كانت تقوم في ذلك العصر مقام الطباعة في عصرنا بل أكثر منها اذ
كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب أو يُنسخ تحت اشرافه ويصحح
هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه ، وكان يقوم بهذا العمل افراد
ولكنه اذا اتسع كوز ما نسميه الآن «بادارة» وقد اشتهرت الوراقة في عصر
ابن النديم شهرة ذائعة ، والكتب الذى نقلت في عصره يدل جودة تصحيحها
والعناية بها على مبلغ رقى هذه الصناعة ، وقد اتخذ صناعة الوراقة كثير من الادباء
والعلماء ترجم لهم ياقوت في معجم الادباء بل كان ياقوت نفسه ورّاقاً ينسخ
الكتب ويبيعها وخلف مكتبة كبيرة انتفع بها ابن الاثير صاحب الكتاب
الكامل في التاريخ

وأما الكتابة فكانت حرفة يحترفها طائفة من الناس وكانت تتطلب
معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة في الاطلاع على النحو الذى ألف فيه

صبح الاعشى للقلقشندى ، ونهاية الارب للنويرى — هاتان الصناعتان الوراقه والكتابة مكتنا بن النديم من سعة الاطلاع على النمط الغريب الذى نعرفه فى كتاب الفهرست ، فهو مطلع على كل ما ألف باللغة العربية فى كل فن دينى أو فلسفى أو تاريخى أو أدبى ، هذا الى الدقة المتناهية فى تحرى الحق فما رآه يقول قدرأته ، وما سمعه ينص على انه لم يره ، ويخلى نفسه من تبعته

وقد وردت عبارة فى كتاب الفهرست استنتج منها « الاستاذ فلوجل » أن ابن النديم كان فى القسطنطينية سنة ٣٧٧ وهى أنه ذكر عند الكلام على مذاهب أهل الصين وشىء من أخبارهم « أنه لقي الراهب النجرانى الوارد من بلاد الصين فى سنة ٣٧٧ وكان قد مكث بها ست سنين — الى أن يقول « فلقته بدار الروم وراء البيعة فرأيت رجلا شابا حسن الهيئة قليل الكلام الا أن يسأل فسألته الخ » وقد استنتج فلوجل أن دار الروم هى القسطنطينية ، وأن البيعة هى الكنيسة الكبرى التى صارت فيما بعد مسجد أياصوفيا ، وهو استنتاج غير صحيح لم يوافقه عليه المستشرقون واستظهروا أن المراد بدار الروم محلة كان يسكنها الروم فى بغداد ، وبالبيعة بيعة لهم هناك كماسمى المصريون حارة من حارات القاهرة بحارة الروم ، والدليل على هذا أنه يقول أن الجائليق الكبير ارسل هذا الراهب الى الصين ثم عاد بعد ست سنين ، فالظاهر أن الجائليق جائليق بغداد ، وأنه عاد أى الى بغداد ، وأن المقابلة كانت بها لا بالقسطنطينية

والحق أن كتاب الفهرست ذخيرة لا تقدر غرضه أن يحصى جميع الكتب العربية المنقولة من الامم المختلفة والمؤلفة فى جميع أنواع العلوم ويصفها ويبين مترجمها أو مؤلفيها ، ويدكر طرفا من تاريخ حياتهم ويعين تاريخ وفاتهم فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لا حصاء ما ألف الناس الى آخر القرن الرابع الهجرى وأشمل وثيقة تبين ما وصل اليه المسلمون فى حياتهم العقلية والعلمية فى ذلك العصر وأكثر هذه الكتب التى وصفها قد ضاعت بتوالى

النكبات المختلفة على المملكة الاسلامية ولا سيما في غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضا كما ضاعت معالمها والناظر في كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمي الذي كان في العصر العباسي وكثرة المؤلفين والمترجمين في جميع نواحي العلم كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبّه للوقوف على كل شيء حتى في أدق مسائل الأديان المختلفة والمذاهب المتنوعة ، يفصل مذهب ماني ومزدك ، كما يفصل مذهب أبي حنيفة والشافعي ، ويستقصى البحث عن أحوال الصين والهند ، كما يستقصى البحث عن الشام والعراق وهو في كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسائلهم ويدقق في أخبارهم ثم يدون ما سمع

لذلك كان الكتاب - بحق - مرجع كل باحث من مسلمين ومستشرقين ، كان عمدة ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء والقفاط في أخبار الحكماء ، وجرى زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ، والاستاذ «خولسن» في بحثه عن الصابئة ، والاستاذ فلوجل في بحثه عن «ماني» ولا يزال موردًا لا ينضب لكل منقب وباحث وللمؤلف أسلوب في كتابته غريب قل من احتذاه من المؤلفين ، وهو أسلوب اقتصادي يكره اللغو والمقدمات والاطالة في آداء المعنى ويجب أن يندفع الى صميم الموضوع ابتداء من غير مواربة ولا تمهيد ، وخير نموذج لذلك فاتحة كتابه اذ يقول «رب يسر برحمتك» النفوس تشرب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات ، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا اذ كانت دالة على ما قصدنا في تأليفه ، ثم يحصر ما يريد من أبواب الكتاب ويأخذ في الكلام في دقة وإيجاز حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لان معناها مكرر أو عبارتها مترادفة

ثم هو صادق يتحرى الصدق ، ويميز بين ما رأى وما لم ير ، وينقل كل ذلك

الى القارىء فى أمانة تستدعى الإعجاب — لم يحاول ابن النديم أن يزوق
عبارته ويصقلها حسبما تقتضيه قوانين البلاغة ، ولكنه استطاع أن يؤدى ما
يريد فى ضبط واحكام .

